صخرة هليوبوليس

صخرة هليوبوليس
رواية

أحمد زغلول الشيطي

الطبعة الأولى: ١٤٤٠ هـ ، ٢٠١٩ م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر ، قصر النيل ، القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ – فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
e.mail: elainpiblishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية
أ. د. أحمد شوقي
أ. د. خالد فهمي
أ. د. فتح الله الشيخ
أ. د. فيصل يونس
أ. د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام:
د. فاطمة البودي

تصميم الغلاف والصفحات الداخلية:
أحمد اللبّاد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/١٠٥٠٣
ISBN 978 – 977 – 490 – 551– 3

أحمد زغلول الشيطي

صخرة هليوبوليس

روايـة

دار العين للنشـر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الشيطى، أحمد زغلول.

صخرة هليوبوليس: رواية/ أحمد زغلول الشيطى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، 2019

ص؛ سم.

تدمك: 3 551 490 977 978

1- القصص العربية

أ- العنوان

813

رقم الإيداع / 10503 / 2019

إهداء

إلى أخي الأصغر: زغلول الشيطي
الآن فقط عرفت أن لقاءنا الأخير كان وداعًا
وأنك طوال ليلتك السابقة سمعت نباح كلب
يشبه عواء ذئب
ولم تخبرني

أيضًا إلى

أصحاب شارع البندر وحارة نعيم، أرض
زعتر وحارة معري، الشبطاني، عزبة
حنطر بالبر الشرقي للترعة، كذلك ميت
الشيوخ إذا ما تتبعنا خط السكة الحديد
الضيقة – التي أسسها البارون – لقطار
الدلتا جنوبًا باتجاه فارسكور، أيضًا
الجربي شمالًا، الذي منحني منفذًا بحريًا
على المتوسط ممزوجًا بالألم والحيرة،
وتلك المساحة التي تكرمت بها عليّ
هليوبوليس لأزعم متبجحًا أني أحد
سكانها. إلى كل هؤلاء الذين عبروا ممالك
وديكتاتوريات، وحروبًا عبثية، واختبروا
لصوصًا خبراء، وقاوموا بعناد الرغبة
الملحة في التحول إلى أشباح.

« ولكي تكون راضيًا جئت إليك كاشفًا رأسي »

الخروج في النهار

كتاب الموتى

«بتصرف»

أي تشابه مع أي أشخاص، أو أزمنة، أو أماكن، محض وهم،
ولا يُعوَّل عليه

كتاب أول

البارون إمبان أنشأ قصرًا هنديًا مثبتًا على قاعدةٍ من الرولمان بلي، ليدور القصر حول نفسه على مدار الساعة، حتى إذا ما أطل من نافذته الرملية شاهد تعاقب الظل والضوء، من المشهد المهيب لأهرامات الجيزة إلى آخر حدود المطرية، لم ينس البارون أن ينشئ نفقًا يمتد من قصره تحت سطح صحراء هليوبوليس إلى مقبرته التي سيدفن فيها مستقبلًا داخل كنيسة البازيليك.
بعد أن عاش أزمنة مضاعفة داخل الزمن الواحد، وبعد أن دفن مرتين، الأولى في موطنه قبل قراءة وصيته، والثانية وفقًا للوصية بعد قراءتها، لم يسلم من عاقبة إساءة التصرف الملازمة للطبيعة الإنسانية، هو يرقد الآن منذ نحو تسعة عقود على بعد خطوات من مقري أنا الذي يعتريني الملل.
وحده النفق ما شغلني، عوضًا عن الطرز المعمارية البلجيكية، وحده البارون كان يعلم أن عبقرية التشييد يعبر عنها النفق أكثر من أي شيء آخر، لذا اعتمد عليه هو - سيد المسافات - ليقطع مسافته الأخيرة ما بين الحياة والموت.
المغامر الفلمنكي، مهندس السكك الحديدية، منشئ المدن، الذي فتنته هليوبوليس، أون المقدسة، مدينة الآلهة والشمس، يضطجع في كنيسة تصطخب حولها حركة المواصلات والبشر، وتفوح بالقرب منها رائحة الشاورما، لم يكن يدري أن المبنى مسطح الواجهة للحرية مول العامر بمحلات الأحذية، والمنتجات البلاستيكية، سيطل برأسه يومًا فوق مثواه الأسطوري.

في الدهليز المؤدي إلى الحمَّام

هل ان الوقت أول المساء أم في عمق الليل؟

كان الساكن السابق قد نزع جميع المصابيح قبيل أن يرحل. هل كانت أضواء الشوارع والسيارات تخترق زجاج النوافذ وتضيء الشقة بنور خفيف متغير؟ هل كان نائمًا أم أنه صحا فجأة حين جاء العجائز؟ لا يعرف كيف دخل هؤلاء؟ أزاح البطانية قليلًا محاذرًا أن يكون بنطلون البيجامة مبلولًا، كانوا يقفون جميعًا بأحذيتهم على البلاط في حين أنه كان ممددًا على قطع الكرتون، ومغطى إلى صدره بالبطانية.

لم يرتح أبدًا في النوم، فضلًا عن الرطوبة التي تنشع من البلاط إلى قطع الكرتون، فإن حركة المترو تشعره أنه نائم فوق الرصيف وأن الشقة لا تعدو أن تكون رصيفًا في الطابق الثالث. سمع همهمات لم يميزها، حين أدرك أن ما يراه يحتمل أن يكون شبيهًا بما يراه في الدهليز المؤدي إلى الحمَّام، حين يسير شبه نائم خشية إزعاج ضيوف

سرعان ما يتراءى له أنهم كانوا في الحلم.

هب واقفًا وهو يمسك بأعلى بنطلون البيجامة من الناحية اليمنى إلى أن اطمأن أنه ليس مبلولًا، ترك جاكت البيجامة يغطي نصفه العلوي: مين؟ في العتمة الخفيفة ساوره الشك أنه يرى مشهدًا يحتمل ألَّا يكون حلمًا، ويحتمل أن يكون حلمًا يمثل فيه دور صاحب البيت وأن هؤلاء هم الدخلاء، ولكن: كيف؟ بادره أحدهم، البدين متوسط القامة: الباب كان مفتوحًا فدخلنا. هل ترك الباب مفتوحًا؟ ومتى تركه؟ قبل أن ينام؟ وهل الباب المفتوح دعوة للدخول؟ قال في نفسه إن للأحلام منطقها، كأنما قرأ أحدهم سؤاله فجاوبه رجل أسمر نحيل بصوت بدا عصبيًّا: احنا ضغطنا الجرس وخبَّطنا فانفتح الباب. لاحظ خلافًا للبدين والنحيل اثنين آخرين بدا أنهما يتأهبان للحديث حين يأتي دورهما، أحدهما كان ممتلئًا في غير ترهل، مستدير الوجه ويرتدي نظارة طبية مستديرة العدسات، ولم يكن في رأسه شعر، ويرتدي سويتر بيج بسوستة جعله يبدو أصغر سنًّا، أما رابعهم فقد كانوا ينادونه «عيد» يبدو صعيديًّا أسمر يرتدي جلبابًا أبيض واسع الأكمام، وكان يتابع الحوار بشغف موجهًا نظره إلى قطع الكرتون والبطانية المكومة.

تحير للحظة، ماذا يفعل معهم؟ هل يصرخ في وجوههم بسبب الدخول غير المقبول، وأن الباب المفتوح ليس عذرًا. شعر أن موقفه ضعيف، كانت قطع الكرتون تشعره بالعار حينًا، ثم ينتقل شعوره

إلى آثار الاحتلام التي قد تكون ظاهرة للعيان، أحيانًا يغلق الباب ومع ذلك يبقى مفتوحًا. فكر أن لسان الكالون العنيد يحدث تكة تشبه تكة الانغلاق لكنه انغلاق وهمي، يأبى اللسان المعدني أن يبيت في مبيته إلا إن أُخذ بعمد. حاول أن يحافظ على سمة المندهش الرافض لما حدث، مبينًا قدر الإمكان نبرة احتجاج، غير أنهم كانوا يتلفتون متفحصين الصالة، وكان الباب يحدث تكات متتالية لكونه غير مغلق. هل كانت هذه التكات ما أثار رعبه كمؤثرات صوتية داخل كابوسه المتكرر؟

عاوده الشعور أن ما يحدث قد يكون غير حقيقي، وأنه مجرد امتداد لأحلام وهواجس النوم. اجتاحته ذكرى خمن أنها ربما مرت به، كان ينام في البحر في عز نوَّة شديدة البرد والريح، يلتف في بطانية سوداء تفوح منها رائحة سولار، وكانت الماكينة «الجاردينر» في قاع المركب تحدث تكات متواصلة تضرب عظامه، ويسمع أزيزًا يثقب أذنيه بعناد، برغم ذلك كان ينزلق هادئًا فوق الموج المتلاطم والبرد والريح والليل، إلى أن يوقظه رجل يقول إنه خاله ليستلم نوبته.

يجوبون البحر بشباك الجر، لا يخرج في الشباك غير الرمال والأحجار، يقول من يُدعى خاله إن الشباك تُجرّف البحر من أسماكه، وأن المجاعة قادمة لا محالة، رغم أنه لم يركب البحر أبدًا وليس له أخوال يعملون بالبحر.

انتبه على صوت مرور المترو بضجيجه وارتطاماته الحديدية التي

لا تنتهي، قال العصبي الرفيع شديد السمرة: مطلوب ٣٠٠ ج قيمة قسطين لاتحاد الملاك، لم يفهم ماذا يقصد، فقال له الذي بلا شعر في رأسه شارحًا: الدكتور صلاح رئيس اتحاد الملاك بالعمارة. قال: أهلًا وسهلًا. قال الدكتور صلاح بنفاد صبر: مطلوب سداد القسطين. تدخل البدين متوسط الطول موجهًا كلامه إليه: احنا فاتنا نعرفك بنفسنا، ثم ابتسم ابتسامة مترددة وهو ينظر للدكتور صلاح ثم حزم أمره وقال: أنا محمود كفافي مدير عام التعريفة والبحوث الاقتصادية بالجمارك سابقًا وممثل مصر في مفاوضات الجات. بدا أنه أزاح عبئًا ثقيلًا وراح يتابع آثار المنصب الكبير على وجهه ثم قال: في الحقيقة كنا عايزين نأخذ رأيك في موضوع البرج. زعق دكتور صلاح موجهًا كلامه لعديم الشعر: إيه اللي بيقوله ده؟ قال البدين متوسط القامة مستنجدًا بعديم الشعر: البرج يا عزيز بيه، إيه الحكاية؟ قال عديم الشعر موجهًا كلامه إليه: عزيز الحضري نائب رئيس وكالة أنباء الشرق الأدنى، الحقيقة احنا أول مرة نشوفك بعد الأستاذ عماد، مش أنت الساكن الجديد؟ ورفع يده مشيرًا للدكتور صلاح أن يصبر قليلًا. اندفع دكتور صلاح مهددًا بالانسحاب: مش الأمور دي مسؤولية رئيس الاتحاد؟ أومأ محمود كفافي مؤيدًا، أوضح عزيز الحضري أنه لا يقصد التدخل في مسؤوليات دكتور صلاح، وأنه أراد فقط إيضاح الأمور للأستاذ. وأشار إليه بينما كان واقفًا يتأمل وجه عيد الذي لم ينقطع عن النظر إلى قطع الكرتون

والبطانية والمخدة البيضاء المتسخة.

قال محمود كفافي موجهًا كلامه للفراغ: المقاول طمني إن العمارة في المقطم... أسكته دكتور صلاح بصيحة قوية: من عشرين سنة مصدع دماغنا بعمارتك في المقطم. قال كفافي: بكرة تشوف.. بكرة تشوف.. سامع كلامه يا أستاذ عزيز؟ قال عزيز: انتو صحاب مع بعض يا حاج محمود ما أقدرش أتدخل بينك وبينه. رفع عيد عينه عن البطانية ونظر إليه مباشرة قائلًا: الزبال ما بيدخلش لسعادتك؟ ارتبك قليلًا وحار في أمر السؤال، فهو لم ير الزبال أبدًا، ولا يشعر أنه في حاجة لأن يراه. قال عزيز: الحكاية ما بقتش زبال، مدام عايدة بتقول إن فيه رشح في الحمَّام عندها وبتهدد أن تُبلغ الحي. قال كفافي: والبرج؟ رد دكتور صلاح يائسًا من كفافي: البرج هيتعمل هيتعمل مش عايزين موافقة حد. انتفض عزيز: الدراسات قالت إن ما فيش خطر على الصحة منه ثم إن أبراج شركات المحمول على عمارات كتيرة جنبنا، أكد محمود كفافي موجهًا كلامه لقطع الكرتون والبطانية: خمسين ألف جنيه سنويًّا تعفي أصحاب الشقق من أقساط الاتحاد، ويكون فيه فرصة نعمل أسانسير تاني.

وجه دكتور صلاح كلامه إليه: ناوي حضرتك تحل المشاكل معانا، قال: مشاكل إيه؟ انطلق دكتور صلاح إلى باب الشقة وفتحه على أقصى اتساع وأشار إلى الردهة المقابلة للباب: دي أول مشكلة يا أستاذ. كانت أكياس زبالة كثيرة مرصوصة بنظام أمام باب الشقة

المجاورة المقفولة، بحيث وصلت الأكوام لما يزيد عن منتصف الباب. دي زبالتك يا أستاذ، كل العمارة متضررة. قال: أنا؟ ثم خالطه الشعور أن ما يحدث أبعد من أن يكون رؤيا نائم، وأنه ربما لا يزال في سنته الجامعية الأولى، وأنه في دار السلام، حيث تندفع الكتل البشرية مغادرة المترو المتجه إلى حلوان، وأنه يسير على الأرض الترابية نحو كيلو ونصف، ثم يهبط في الشارع الضيق الترابي المنحدر بشدة، إذن هذه هي «العيسوية» التي لم يدخلها الصرف الصحي ولا المياه، أغلب سكانها من مهاجري أرياف الدلتا والصعيد، ربما كانت متعته الوحيدة هي مراقبة السمراء وهي تتحرك حرة فوق السطوح ناشرة الهدوم أو مشتبكة مع عشة الفراخ. يقف خلف شيش النافذة طويلًا منتظرًا أن تهل في قميصها البيتي الباتستا، يقضي معظم وقته خلف الشيش متابعًا إياها في كل شيء، حتى في خناقاتها مع زوجها الذي بدأ يصادق علي العيسوي الملتحي، المرتدي جلبابًا وبنطلونًا قصيرين أبيضين، والحامل للمصحف في غدواته وروحاته. في الفجر يسمع عليًّا ينادي على سعيد.. يا سعيد الصلاة. لقد بدأ مع زوجته قصة الإقناع بأن ترتدي الخمار.

كان هذا هو الموضوع الذي باتت تنتهي إليه جميع الشجارات الزوجية، مضافًا إليها عادة جديدة هي التهديد بالضرب. أما هو فقد كان خلف النافذة يتابع عروض المرأة بنهم، عروضًا مرتجلة عفوية حتى إنه كان يهم بالتدخل مقترحًا تعديلًا طفيفًا، كأن تقصر

القميص البيتي قليلًا، أو حتى تنزع أكمامه. كان ينتبه إلى أنه مشاهد غير شرعي، إلى أن كان يوم رأى إيقاع العرض يتغير داخلًا إلى مناطق جديدة، لم تكن في الحسبان. لقد تيقن أن العروض الأخيرة كانت لأجله هو وحده، صارت تعرض لمُشاهد وحيدٍ مختفٍ خلف شيش النافذة، لاهثِ الأنفاس في ظلام الحجرة، ليلة بعد ليلة توغل العروض في حرفيتها، إلى أن كانت المواجهة الكبرى. انتهت المشاجرة بأن ضرب سعيدٌ السمراءَ، كانت ضربةً هينةً لا قسوة فيها، فما كان منها إلا أن قذفت رأس سعيد بكوب زجاجي كان في يدها ثم راحت تصرخ صراخًا حادًّا. لم يكن يتصور قدرتها على هذا الأداء، هي الوديعة الصامتة أغلب الوقت، هي التي تؤدي شؤون السطوح بإيقاع يكاد يكون راقصًا، هي التي تبادله تحيات عذبة في السوق وأمام طابور العيش وعلى محل الفول والطعمية. ما كان من سعيد إلا أن تحسس رأسه وانصرف صامتًا إلى الطابق الأرضي، أما هي فقد جمعت أشياءها الشخصية وانصرفت إلى بيت أهلها غاضبة لفترة غير معلومة. أكانت هذه شقة الطلبة حين جاء من دمياط للدراسة بالجامعة، وهل هذه ذكرى يمكن الركون إليها، تحيره السياقات المتقاطعة حيث يصبح ما حدث مجرد ضرب من التخمين.

انتبه على صوت دكتور صلاح الغاضب: حاسبت الزبال؟ قال: أنا ما شوفتوش ولا مرة. قال: وهو ما شلش زبالتك ولا مرة.

شعر أن رد دكتور صلاح كان مفحمًا، لقد تابع كلامه بغضب بدا حقيقيًّا: صاحب الشقة دي عميد مخابرات عامة لو شاف المنظر ده مش هيحصل طيب. أمن على كلامه الجميع بمن فيهم عيد، أما ثانية المشاكل فموجودة في الحمَّام، وطرق الباب بشدة فانغلق انغلاقًا كاملًا محدثًا تكة صائبة من أول مرة، وانطلق إلى الحمَّام ومن خلفه الجميع.

وقف حائرًا يفكر في الأمر. كل هذا الذي يحدث وهو لا يعلم عنه أي شيء؟ وكيف ترك الأمر يتفاقم هكذا؟ لا شك أنني في حلم، حلم يشبه الواقع لكنه ليس بواقع وليس بحلم. عادت ارتطامات المترو التي تحرمه من النوم الآمن، حين سمع صرخات حادة من ناحية الحمَّام. كان الجميع يصرخون ويشتمون في هرج لا يصدق، راح يطل عليهم، كانوا يتساندون على الحيطان بينما التصقت أقدامهم في سائل غليظ لاصق غطى معظم الأرضية في منطقة الحمَّام. انخلع حذاء دكتور صلاح وبقي ملتصقًا بالسائل اللزج، والتصقت قدمه الخالية من الحذاء فانخلع الشراب والتصق بدوره. كان محمود كفافي مهددًا بالسقوط في أي لحظة، لكنه كان يمسك بسويتر أستاذ عزيز من طرفه، أما عيد فكان قد جلس على الأرض فعلًا. كان صوت المترو يتباعد مغادرًا المحطة، حين علت أصواتهم من جديد.

كتاب ثانٍ

أدار مفتاح سيارته الهوندا السوداء، مستشعرًا أنه أودع نفسه للتو داخل ثلاجة، كان على الزجاج طبقة كثيفة من الضباب تجعل الرؤية مستحيلة، أدار ماسحات الزجاج، كانت مصابيح الأعمدة تضيء محطة مترو النزهة بضوءٍ صافٍ. بدت المحطة مهجورة، وكان مسجد «الصديق» يستعد لصلاة الفجر، رأى عجائز العمارة ينزلون فرادى للصلاة يتسربلون بجلابيب بيضاء أو ملابس رياضية ثقيلة. أدار التكييف محولًا المؤشر بسرعة إلى التدفئة، يعلم أن الهواء يأتي في البدء شديد البرودة إلى أن يستشعر الدفء رويدًا. لقد ترك «هناء» تغط في سبات عميق وألقى نظرة على البنتين قبل أن يغلق باب الشقة. هذه المنطقة من مصر الجديدة تتسم بالبرودة الشديدة كونها تطل على مساحة واسعة تشكل فضاء نادي الشمس.

تمنى إتمام مهمته على خير، الاطمئنان على المقبرة ودرجة صلاحيتها، فقد أبلغه صديقه القديم «إسماعيل الصواف» أنه كان في جنازة وكانت مقبرة الميت قريبة من مقام «سيدي الكردي»، وأنه لمح من مسافة ليست بالبعيدة سقف مقبرة أمي وقد هبط، وأن أجزاء من السقف سقطت صانعة ما يشبه دائرة، وقال إن ضيق الطرقات ما بين المقابر وزحام المعزين حالا دون قدرته على الاقتراب لمعاينة الأمر معاينة دقيقة، وأنه ربما ذهب لذلك مرة أخرى.

هناك ترقد أمه منذ زمن طويل، كانت المقبرة صغيرة الحجم للغاية حتى إنه لم يتخيل أنها استوعبت جسدها، لا يعرف من أيضًا دفن بها. كانت تأتيه الاتصالات في منتصف الليل، يستمع إلى صوت «محمد» ابن عمه بعد التحيات والسلامات، يخبره

بأسفه لكونه يتصل به في هذا الوقت من الليل ثم يستأذن في فتح المقبرة لدفن واحد أو واحدة من الأقارب. كان في البدء يعتبر أن هذا نوع من التقدير له، كونه الوحيد في العائلة الذي يحمل شهادة جامعية، لقد تحير كثيرًا في سلوك ابن العم، لماذا لا يطلب من راضي أو سعيد، كونهما أخويه الأكبر منه سنًا، كما أنهما يعيشان في دمياط حيث يوجد الجميع، وكونهما من اشترى المقبرة في الأساس، فضلًا عن تباعد زياراته هو للبلد، حتى إن زيارته الأخيرة ربما مضى عليها ما يزيد على عامين ونصف، وكانت في رحيل راضي بعد مشوار معقد مع فيروس C، يذكر إصرار أولاده على دفن والدهم في «ميت الشيوخ» مسقط رأس جدتهم لأبيهم، وليس مع والدته التي دفنت في جبانة دمياط. قالوا إن هذه هي وصية والدهم الذي ندم على دفن أمه بعيدًا عن أهلها، حيث تواجه بإهمال وقسوة أهل المدن، على خلاف مقابر «ميت الشيوخ» والأرياف عمومًا والتي لا يزال يعامل فيها الموتى باحترام وإجلال.

لم يكن سعيد قد لجأ بعد إلى عزلة اختيارية ببيته، مسكونًا بخيالات وضلالات، حتى إنه كان لسبب غير مفهوم يتخيل أعداءً يقفون بسيوف حادة متقاطعة على باب الشقة.

صعد إلى كوبري المطار، كانت الطائرات تزمجر على ممرات الهبوط والصعود. في لحظة الفجر هذه، كان طريق الإسماعيلية الصحراوي خاليًا إلا من سيارات قليلة. كانت السيارة قد أصبحت دافئة، انطلق في الطريق إلى دمياط ليتيقن مما كشفت عنه صفحة جوجل ماب التي بينت أن مقبرة الأب ربما تكون قد أزيلت من الوجود، وعدم وضوح ما إذا كانت مقبرة الأم قد انهار سقفها؟ فضل الذهاب للاطمئنان بنفسه على ما لم تكشف عنه الخرائط.